حدود الملفوظ في تصوّر السّيميائيات السّردية

مقاربة سيميائية لخطاب حكائي

الدكتور: مسكين دايري

المركز الجامعي ـ تيسمسيلت ـ الجزائر

الملفوظ«énoncé» في التصّور السيّميائي لا يعترف بالمعطيات الأنتولوجية والنفسية والاجتماعية، التي تدرجها العديد من نظريات تحليل الخطاب في بلوغ دلالات الملفوظ وبناء التأويل، وبغية استعراض هذا التصّور السيميائي، حاولنا مقاربة خطاب حكائي مستظهرين فعالية بعض المفاهيم السّيميائية ذات الأهمية الكبيرة في المقاربة السيميائية وهي :

-الدلالة الأولى – الدلالة الثانوية

– الكفاءة بنوعيها الجهاتية والتركيبية –الأداء.

Résumé:

L'application concrète et rigoureuse de la théorie sémiotique dans le domaine du récit linguistique et visuel ، à permis a ce projet de recherche à « vocation scientifique » (selon le mot d'A.J.Greimas)، d'être parmi les théories les plus connues dans l'exploration de la signification.

Nous avons voulu، par cette approche، démontrer ce qu'un « énoncé » dans la conception sémiotique، et en même temps la valeur des termes sémiotiques comme :

- Signification primaire
- Signification secondaire.
- Compétence (modale et syntaxique)
- Performance

النصّ في التصّور السيميائي، بنية لغوية لسانية، لا تشير إلى أي حضور للمؤلف، ولا تقيم له أي علامة تحيل إليه ضمن خطية الملفوظات Linéarité، كدأب مختلف النظريات المهتمة بتحليل الخطاب، إلا أنّ الإقرار بهذا القول والوقوف عند حدوده؛ هو من سبيل الاعتراف بوجهة نظر تستبق الاستدلال العلمي والموضوعي الموكلة إليه مهام تقفي الجلي والخفي قبل بناء الحكم، والذي تلزمه علميته الاعتراف بكل وجهات النظر الأخرى، وبالخصوص تلك التي أحيطت بالقبول الواسع من قبل الأوساط العلمية.

ومن الواضح أنّه لا يتم فهم دلالات الخطابات الأدبية إلا ضمن فضاء ثقافي وديني معين، يستحضره القارئ، وينتعله من أجل بلوغ المعنى، لكن وفق هذا الاعتقاد، تغدو المقاربة السيميائية (لمدرسة باريس) في بُعد بيّن عن الإستراتيجية السيميائية المحايثة Immanente، التي لا ترى وجودا لماهية الخطاب الحقيقية إلا في حدود الملفوظ (النصّ) وحسب، بعيدا عن أيّ سياق خارجي.

لكن الظاهر اليوم أنّ المفاهيم السيميائية امست ذات قابلية للتحوّل والتّغير بفعل تفاعلها مع أجواء الاكتشاف العلمي وعوالم التجريب التّنظيري والمصطلحي، بحيث ألفينا عند بعض سيميائيي مدرسة باريس -خاصة جوزيف كورتيس- استثماراً لذاك الخارجي، السياقي كعتبة أولى في المقاربة السيميائية، بحيث يضعه "كورتيس "J. Courtés في درجة ما قبل درجة الصفر على محور المقاربة السيميائية، واسما إيّاه بـ (الدلالة الثانوية) Signification secondaire [1]

إنّ سلطة المفاهيم والمعايير السيميائية التي انبنى عليها الصّرح التنظيري الصارم مع "الدلالات البنيوية"[2]، أضحت مع مرور الزمن تعيد اجترار ذاك المقصّي (المرجع السياقي، النفسي، الاجتماعي...) لتتوسل به الولوج إلى فضاء الدلالة وهي وفي الحقيقة إستراتيجية براغماتية، نفعية، تفترض على السيميائي تجريب كل ما بإمكانه خدمة تقفي الدلالات، والظاهر أن هذه الشرفات المفتحة على جوانب الملفوظ (النص)، تُضمر اعترافا من لدن السيميائيات بطرائق بلوغ الدلالة عبر المسالك السياقية وفي الوقت نفسه تنفي عن نفسها التعصب التنظيري، والتحجر المصطلحي الذي لا يستجيب لنداء التفاعل المعرفي والتواصل العلمي.

1-من السياقي إلى النسقي:

الدلالة المسماة "الثانوية"[3] هي التي تحيط بالملفوظ *Enoncé، وتتصل بسياقه أكثر من نسقه، شبيهة إلى حد بعيد مع إستراتجية تفكيك الخطاب الشعري عند "ريفاتير" M.Riffaterre[4] والتي يسمها بالقراءة التقريرية Heuristique، بحيث ينطلق بناء التأويل ابتداء من الكفاءة اللسانية التي يمتطيها القارئ قصد الولوج إلى النص والتفاعل معه، فيسهل عليه بذلك تفكيك الاستعارات واستحضار التشبيهات، وإنشاء التقابلات، كما تؤهّله معارفه السابقة من التعرف على اللانحوية

Agrammaticalité التي يعجّ بها الخطاب الحداثي، ويتيسّر عليه تحديدها انطلاقا من النحوية اللغوية التي تعوّد عليها في الخطابات العادية .

أما اللاّزمة الثانية في الكفاءة الأدبية، فتتمثّل في اعتياد القارئ على الأنظمة الواصفة، والميتولوجيا، والثقافات، وتتجلى فاعلية هذا كلّه حين الانقطاعات، والمفجوات التي تميّز الخطاب الشعري بالخصوص، بحيث تتجلى نفعيّة هذه الكفاءة ضمن مرحلة القراءة التقريرية، وتبرز قيمتها وفاعليتها حين توظيفها من أجل سدّ الفراغات، وملأ الفجوات، وتبديد كل إبهام دلالي يعيق بلوغ المعنى.

والملاحظ أنّ قراءة هذا النّص "بين الأنقاض" تثير الذاكرة، وتجعلها تستحضر ما قرأناه من القصص الشعبية العديدة التي، وإن اختلفت في الأسلوب، واللّغات، واللّهجات، فإنّها تتّفق في تحريك الموضوعات، وإبلاغ المعاني والدلالات.

ومن الاستحالة بمكان البحث عن المؤلف الأوّل الذي نسج أحداث هذا الخطاب، كما يبدو من الصعوبة تحديد محلّ إبداعه، وزمن إحداثه، لكن أغلب المتلقّين يرون في" كليلة ودمنة" المصدر الرئيس الذي يُرجع إليه في تحديد أصول أغلب الحكايات على ألسنة الحيوان.

2- تمظهرات بساطة السّرد : ***بيـــن الأنقاض***

مرّ فلاح بنسر أطبق الفخّ عليه

فزهاه الريش خفـاقا أيدي الرياح

وشجته حيرة في مقلتيه

قال :(يا طير الأعالي ...لا علا الذلّ الجناح)

****

مزقـا بدد عنه الحبل في المرعى الفسيح

فاستوى النسر على الصخر مليا

ورأى الفلاح قد أسند ظهرا يستريح

عند مبنى خرب يوشك أن يهوى هويا

****

وتبدت صرة العاني المغيث

واختطافا نالها النسر وطار

فصحا النائم يطوي السهل بالجري الحثيث

فرماها الطير: خذها، فلقد ماد الجدار

****

أمسك الفلاح بالصرة في حرص وآب

ليرى الحائط منهارا، فأومأ: لا عتاب![5]

وتبدو هذه الأبيات الشعرية مناسبة جدا لتطبيق الطرح السيميائي السردي، وبالتحديد فيما يخص توزيع الجهات "Modalité" وتنظيمها داخل الخطاب، لأن هذه الأخير خصوصيات الشّكلية لهذا الخطاب الشعري، ولتعامل مع جانبه الدلالي، ولذا قدّرنا الانطلاق من حيث انتهاء ملفوظات النّص (من آخر جملة في النص).

..... أومأ : لا عتاب !

إنها الجملة التي توحي إلى انتهاء كلم السّرد من جهة، وبلوغ الغاية من جهة أخرى، وقد تبيّن لنا أن الجهة "Modalité" المتحققة ها هنا، لا تنتمي إلى جهة الفعل Faire فقط، وإنما كذلك إلى جهة الكينونة Etre6 بحيث يتجلى لنا الفلاح والنّسر في صورة ممثلين (Acteurs)، يصدر عنهما الفعل (Agent) وفي الوقت نفسه (مع صيرورة السرد) يقع عليهما الفعل Patient، فهما بذلك فاعلا فعل "sujets de faire" وفاعلا حالة sujets d' état وبإمكاننا صياغة التحول الحاصل في هذه الحكاية على النّحو التالي: (ف1 U م) (ف1 ∩ م)

بحيث يبدو فاعل الحالة (النسر) مفتقدا للنجاة (بوصفه الموضوع المرجو) في الحالة الأولى، وفي الحالة الثانية يتجلى نجاحه وتمكّنه من الموضوع المفقود (النجاة).

وقد تقرأ هذه الخاتمة بطريقة أخرى، إذا ما تعلّق الأمر بصاحب الفخّ، وهو فعل سردي له ما يدل عليه في ملفوظ النّص: ..... أطبق الفخّ عليه

وهذا يعني أنّ ما يبدو وصلا Conjonction مع الموضوع (النجاة)، هو في الوقت نفسه فصلا Disjonction عن الموضوع (الموت)، ولذلك من اللازم اختيار أحد الموضوعين الأوّل أو الثاني، وبناء البرنامج السردي، رمزيا يتخذ النحو التالي:

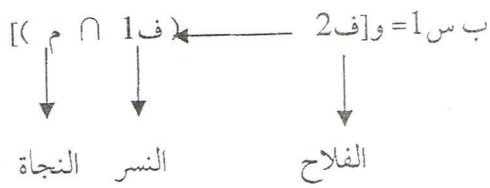

ذلك أن فاعل الفعل ف2 (الفلاح) هو من كان سببا في إقامة وصل (∩) فاعل الحالة ف1 مع الموضوع (النجاة)، وهاهنا (من خلال الخطاطة) نكون قد حددنا وأحصينا ما أصطلح عليه بـ: الأدوار التركيبية Syntaxiques أو العاملية Actantiels وهي:

الأدوار العاملية	البرنامج السردي1	البرنامج السردي2	البرنامج السردي المفترض3
فاعل الفعل	الفلاح	النسر	س (الصياد)
فاعل الحالة	النسر	الفلاح	النسر
الموضوع	النجاة	النجاة	الموت

ذلك أنّ الفلاح ف2 والنسر ف1 تكفل كلاهما بدوري / فاعل الفعل/ و/ فاعل الحالة/ .

في حين بقي الموضوع المرجوّ دون تغيير(النجاة) مع العلم أنّه بالإمكان أنّ يسند ف1 وف2 إلى ممثل واحد كحال الملفوظ التالي: - أنا أقرأ.

فأنا بذلك / فاعل حالة/ في علاقة مع موضوع الاستفادة، وفي الوقت نفسه / فاعل فعل/ من خلال فعل القراءة ذاته ، وفي هذا المعنى يتجلى لنا الفلاح ف2 في حالتين هو الآخر:

حالة 1: فاعل فعل في إنقاذه النسر.

حالة 2: فاعل حالة في افتقاده الاستراحة.

لكن بغية المقاربة الموضوعية من اللّازم اختيار موضوعا محددا من بين هذين الموضوعين.

وأمّا فيما يخصّ البرنامج السردي المفترض، فهو لا يتمظهر على مستوى خطيّة الملفوظات اللسانية، وإنّما هناك ما يشير إليه في ملفوظات النصّ بحيث:

ب س3= و[ف ن ⟵(ف1 U م)]

ذلك أنّ العلامة اللّغوية (...أطبق الفخّ عليه) جعلتنا نفترض برنامجا سرديا أسند دور / فاعل الفعل/ إلى الصياد (ف ن) الذي جعل النّسر (ف1) يفتقد النجاة (م).

ف ن: الصياد

ف1: النسر

م : النجاة

3-الأداء والكفاءة

إنّ / الفعل/ الذي أسند إلى الفلاح والنسر هو المنعوت بـ:الأداء Performance، ومن المنطقي ألاّ يكون هذا الأداء من صنيع قوى سحريّة، وإنّما يخضع لموجود مفترض هو الكفاءة Compétence

وهاهنا تتداخل العلاقات الجهاتية المتعلقة بـ/ فاعل الفعل/ ويتّضح لنا هذا المعنى في مثال الأمّ التي تريد تغيير حالة ابنها من الوساخة إلى النظافة، إنّه من اللازم أن يكون بحوزة هذه الأخيرة الجهات التالية: - إرادة فعل vouloir faire (vf) دافع تنظيف الفعل.

-وجوب فعل devoir faire (df) صورة الابن في وسطه.

-معرفة فعل savoir faire (sf) استعمال آلة الغسيل.

-قدرة فعل pouvoir faire (pf) مواد الغسيل.

- ورمزيا، تتخذ حالة الأم مع ابنها الشكل التالي: و[ف 1 ⟵(ف2 ∩م)]

بحيث تمثل الأم الممثلين معا:ف1 وف2.

ويتبيّن لنا أن الكفاءة تمثل مجمل الشروط المفترضة لكي يتحقق فضلها الأداء، بحيث يبدو هذان العنصران (الكفاءة والأداء) متلازمين، ويفترض أحدهما الآخر.

و إذا كانت الأولى تتجلى في إرادة الفعل (vf) ووجوب الفعل (df)7 وهما الجهتان اللتان تحركان فعل ابتغاء نظافة الابن ويتفاوت قدر وجودهما من شخص إلى آخر فإنّ الثانية فتتمثل في معرفة الفعل (sf)، وقدرة الفعل (sf) وهذان كذلك يتفاوت وجودهما من شخص إلى آخر،

وشجته حيرة في مقلتيه.	عليها العلامات اللسانية التالية:
ج)- وأما معرفة الفعل أشارت إليها الملفوظات التالية:	عند مبنى خرب يوشك أن يهوي هويا.
مزقا بدّد .....الفسيح	ج)- تجلت معرفة الفعل في قول الشاعر:
د)-وأخيرا تجلت جهة قدرة الفعل(pf)	واختطافا نالها النسر وطار....
مزقا.....الجبل	د)-قدرة الفعل دلّت عليها الملفوظات التالية:
	واختطافا نالها ...
	فرماها الطير...

يتجلى لنا -من هذا كله- أن تحريك الفعل في هذا المتن السّردي لا يشبه في أيّ حال من الأحوال ما ألفيناه في الحكايات الخرافية التي تستند إلى قوى عجيبة سحريّة، وإنّما ينطوي على قاعدة منطقية، بحيث تسند الظاهرة إلى مسبّب منطقي وحقيقي يتقبله العقل، وهذا الاستنتاج الذي عملنا على تحيينه ينفي عن الحكايات الخرافية على ألسنة الحيوان صفة السذاجة التي تعوّد الكثير نعتها بها.

إن هذا النصّ يبلّغ قيما أخلاقية نبيلة تمثّلت في :النجدة – الشفقة – الإحسان – الشكران – ردّ المعروف.الخ. فليس ثمة من جنس أدبي في اعتقادنا، أكثر تفضيلاً بين عامة المتلقين على اختلاف كفاءاتهم من السّرد الخرافي ولعلّه السّبب الذي يبرّر تكليفه بالحفاظ على القيم الإنسانية وتعليمها الأجيال عبر الأزمنة.

مراجع البحث وإحالاته:

1- وتسمى كذلك الدلالة اللسانية فيما يخص اللغة اللسانية "Verbal"

2- A.J.Greimas ،Sémantique structurale،ed . Larousse ، Paris ، 1966

3- J.Courteses، Analyse sémiotique du discours ،P.61

4- - الدلالة الأولى: وهي الدلالة التي ينتهي إليها أي مستمع لحكي، أو أي قارئ لقصة، وهي الدلالة التي يقتسمها أكبر عدد ممكن من القراء، وتعتبر محل اهتمام التحليل السميائي الذي ينطلق من افتراض وجود قارئ (normal) ، توصل إلى إنشاء فهم قياسي عادي standard وهذا الإدراك المتوسط هو الذي تسعى السميائيات إلى إعادة بنائه بواسطة إجراءاتها الخاصة.

ولذلك تأتي النتائج مختلفة في تحقيق درجة النظافة من أمّ إلى أخرى، وتحديد وجود هذه الكفاءة في النص يتوسّل إليه من خلال التساؤل التالي:

كيف نجح الفلاح في إنقاذ النسر؟

لاشك أن هناك اختلاف في كيفية الأداء لكن كل منهما حقق هدفه ومقصده.

4 .مؤشرات الكفاءة الجهاتية modale التركيبية syntaxique

انطلاقا من نهاية متن الخطاب تبين لنا –كما سبق ذكره– أن الجهات المتحققة ضمن صيرورة السرد، لا تنحصر في جهة الفعل، وإنما لها وجود آخر في جهة الكينونة وبإمكاننا تمثيل هذا في الشكل التالي:

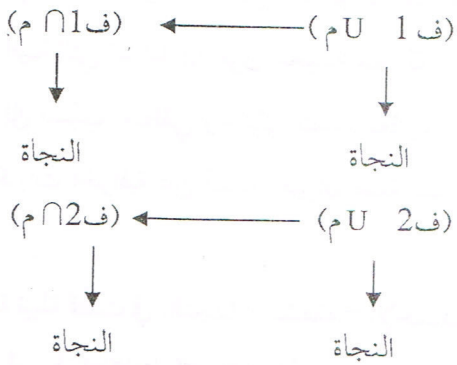

وكأن الذي وقع في البرنامج السردي الأوّل، تكرر هو نفسه في البرنامج السردي الثاني، وهذا يعني أنّ فاعلي الفعل امتلكا الكفاءة نفسها .

البرنامج السردي الأولي	البرنامج السردي الثاني
ب س1= [ف2 ⟵ (ف1∩م)]	ب س2= و2[ف1 ⟵ (ف2∩م)]
-إن الذي حرّك فعل الفلاح هي الجهات التالية:	
أ) – إرادة الفعل (vf) التي تشير اليها العلامات اللسانية التالية :	أ)- وأما إرادة الفعل التي حركت فعل النسر دلت عليه الملفوظات التالية
قال : يا طيـر.....	- فاستوى .....
ب) –وأما جهة وجوب الفعل (df) فقد دلت عليها العلامات اللسانية التالية :	- ورأى.....
	ب)- وأما جهة وجوب الفعل/ فقد دلت

- الدلالة الثانوية: وتتمثل في المعلومات الموسوعية التي بإمكانها إدراج تأويلات إضافية، أكثر تركيبا وتعقيدا ؛ فعالم الاجتماع وعالم النفس والمحلل النفسي، والمؤرخ ...إلخ، يدرجون دلالات حسب اختصاصاتهم، وهذا ما يسمى بالدلالة الثانوية، ومن اللازم أن نشير - كما يقول كورتاس إلى أن هاتين الدلالتين، رغم تميزهما، واختلافهما، ليستا متقابلتين أو متناقضتين، ولكنهما متكاملتان ؛ فكثيرا ما نجد المقاربات السميائية تدرج هذه الدلالات بغية التعريف بالموضوع المدروس أو تحديد أبعاده المعرفية..

5- M. Riffaterre، sémiotque de la poésie ، Ed. du seuil ، Paris ، 1983.

6- حسب الشيخ جعفر، أعمدة سمرقند، دار الآداب، بيروت، 1989، ص.15

7- Voir J، courtes ، analyse sémiotique du discours، Ed. hachette، paris، 1991

8- Voir sémiotique ،dictionnaire résonné de la théorie du langage ، éd، Hachette ،tome 1،1979; tome2 1986.